أسوار المدينة المنورة في التاريخ

أحمد محمد شعبان

باحث في مركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

تمهيد

الأسوار : مبان دفاعية كانت تحيط بالكثير من المدن القديمة ، كالقاهرة ودمشق والقسطنطينية وبغداد ؛ بهدف حمايتها من هجمات الغزاة[١] .

وقد استخدم الإنسان هذا النوع من البناء منذ زمن طويل ، وحدثنا القرآن الكريم عن الردم المتين الذي أقامه ذو القرنين ليحمي به القرية التي طلبت منه ذلك من جيرانها المفسدين يأجوج ومأجوج[٢] .

ومع مرور الأيام شكل انتشار الأسوار ظاهرة عمرانية حضارية ، حافظت عليها كثير من الدول ، و اشتهر من بينها سور الصين العظيم الذي يعد إحدى عجائب الدنيا السبع .

وكانت الأسوار معروفة لدى عرب الحجاز ، ومن أشهرها السور الكبير الذي كان يحيط بمدينة الطائف[٣].

أما المدينة فلم يكن لها في العصور الأولى سور ، ولم يكن يقام فيها مع عظم سعتها واتصال قراها إلا جمعة واحدة[٤] .

---

(١) كان للأسوار فعالية كبيرة في ظل وجود الأسلحة التقليدية القديمة، ويذكر المؤرخون وكتاب السير أنه كان لسور الطائف دور كبير في صد المسلمين عنها بعد حنين ، وفي هذا يقول الشاعر :

نحن بنينا حائطاً حصيناً يقارع الأبطال عن بنينا

انظر معجم البلدان لياقوت الحموي ٩/٤ ، وفتوح البلدان للبغدادي ص ٦٧ وسيرة ابن هشام ٤٨٣/٤ .

وقد ألمح القرآن الكريم إلى فاعلية الأسوار في الدفاع في قوله تعالى : ﴿ لا يقاتلونكم جميعاً إلا في قرى محصنة أو من وراء جدر ﴾ من الآية ١٤ من سورة الحشر .

(٢) راجع تفسير القرطبي عند قوله تعالى في سورة الكهف : ﴿ ويسألونك عن ذي القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكراً ﴾ إلى آخر القصة .

(٣) ويذكر الزبيدي في تاج العروس ١٨٤/٦ ، أن الطائف سميت بهذا الاسم نظراً لوجود السور الذي يطوف بها .

(٤) خلاصة الوفا للإمام علي بن عبد الله السمهودي ، تحقيق: د. محمد الأمين الجكني ، ط١ ، ١٤١٨هـ ، ٢٤٧/٢ .

وكان اعتماد أهل المدينة على الحصون والآطام[١] بدل الأسوار في حماية أنفسهم وممتلكاتهم ، ويذكر الدكتور عبد العزيز العمري عوامل عدة تجعل أهل المدينة يركّزون على بناء الآطام بدل الأسوار[٢] ، أهمها : اختلاف سكان المدينة ، فمنهم العرب وهم قبائل ، واليهود وهم قبائل أيضاً ، وكثيراً ما كانت الحروب تنشب بين العرب بعضهم مع بعض أو بينهم وبين اليهود فكان كل قوم يلتجئون إلى حصونهم لحماية أنفسهم وممتلكاتهم ، ولا جدوى من السور في هذه الحال ما دامت الحروب داخلية ، وهذا الأمر يختلف عن الطائف آنذاك مثلاً ، فإن تجانس سكانها واتحادهم في الدفاع عن بلدهم ، وانعدام الخوف من بعضهم البعض ؛ مكّنهم من بناء سور يحمي مدينتهم بشكل عام. فعملية بناء الأسوار أو الحصون خاضع للظروف الأمنية داخل المدن ، فإن كان مستتباً كانت الأسوار ، وإلا كانت الحصون والآطام .

وبهذا نفسر ما أخبرنا به الأزرقي في أخبار مكة[٣] من إقبال أهل الطائف على بناء الحصون والآطام في الطائف بعد ذلك نتيجة للحروب الداخلية التي نشبت فيما بينهم .

ونفسر به أيضاً بناء أهل المدينة للسور عام ٢٦٣هـ كما سيأتي .

وفي رأيي ؛ فإن هذا التعليل هو أرجح ما قيل في سبب بناء الحصون بدل الأسوار أو العكس ، وما ذهب إليه البعض من أن ذلك خاضع لطبيعة البلد ؛ فإن كان زراعياً بني فيه الحصون ، وإن كان غير ذلك بني عليه الأسوار غير دقيق ؛ لما قد بيّنّا من تبادل الأدوار بين الأسوار والحصون في المدينة الواحدة تبعاً للأحوال الأمنية الداخلية ، وهذا يعكس أيضاً مدى أهمية الأسوار أو الحصون بالنسبة للإنسان في تلك العصور ، ولهذا لما جدد الجواد الأصبهاني سور المدينة

(١) الحصون : جمع حصن ، وهو بناء مرتفع كبير ، يبنى بالحجارة الضخمة ، للحماية من هجمات الأعداء ، وتسمى أيضاً الآطام ، وهناك من يفرق بينهما ، والمدينة من أكثر مدن الحجاز حصوناً وآطاماً ، أوصلها بعضهم إلى مائة وتسعين أطماً ، انظر تاج العروس للزبيدي ١٨٧/٨ ، وأطوم المدينة للأستاذ عبيد مدني ، وهو بحث نشر في مجلة كلية الآداب بجامعة الملك سعود..

(٢) انظر الحرف والصناعات في الحجاز في عهد الرسول ﷺ د / عبد العزيز العمري ، ص١٨٧ ، ط٣ ، دار إشبيليا ، الرياض ١٤٢٠هـ .

(٣) ص ١٦٨ .

- كما سيأتي - كان الخطيب يدعو له على المنبر ويقول : اللهم صن حريم من صان حرم نبيك بالسور محمد بن علي بن أبي المنصور .

وبهذا يتبين أن ما ذكره الشيخ محمد حسن شراب رحمه الله تعالى من أن الأسوار تزيد الناس خوفاً وفقراً وعوزاً وكسلاً وأن المدينة عاشت قروناً طوالاً في الجاهلية وصدر الإسلام ولم تعرف الأسوار[١] ؛ يحتاج إلى إعادة نظر خاصة إذا ما علمنا أنه كان في المدينة في تلك القرون حصون كثيرة أوصلها البعض إلى مائة وتسعين حصناً - كما تقدم - وهي البديل الطبيعي للأسوار .

بداية بناء سور المدينة :

يذكر المطري[٢] نقلاً عن ابن خلكان أن أول من بنى السور بالمدينة هو عضد الدولة ابن بويه[٣] في الفترة ما بين ٣٦٧-٣٧٢هـ في خلافة الطائع لله بن المطيع لله[٤] ، وإليه مال الفيروزابادي في المغانم[٥] .

قال العلامة السمهودي معقباً على ما نقله الفيروزابادي عن الطبري وابن خلكان : « قلت : وهو مخالف لما في الروض المعطار في أخبار الأقطار من أن إسحاق بن محمد الجعدي[٦] بنى سور المدينة المعروف عليها اليوم أي في زمنه سنة ثلاث وستين ومائتين »[٧] .

---

(١) المدينة النبوية فجر الإسلام والعصر الراشدي ١/٣٧-٣٨ .

(٢) التعريف بما آنست الهجرة لمحمد بن أحمد المطري ت٧٤١هـ ، ص ٧٣ ، ط. المكتبة العلمية ، ١٤٠٢هـ .

(٣) هو السلطان عضد الدولة ، أبو شجاع ، فنَّاخسرو ، صاحب العراق وفارس ، ابن السلطان حسن بن بويه الديلمي ، كان بطلاً شجاعاً ، عالماً ، وكان شيعياً مغالياً ، بنى للمدينة سوراً نحو عام ٣٦٠هـ ، في خلافة الطائع لله بن المطيع لله ، مات سنة ٣٧٢هـ ببغداد ، ونقل فدفن بمشهد النجف ، وله٤٨ سنة .
المنتظم لابن الجوزي ٧/١١٣ ، وسير أعلام النبلاء للذهبي ١٦/٢٤٩ .

(٤) هو الخليفة العباسي أبو بكر عبد الكريم المطيع لله ، كان الحل والعقد في زمانه لعضد الدولة ابن بويه. استمرت خلافته ثماني عشرة سنة، ثم عزل . ومات سنة ٣٩٣هـ .
المنتظم ٧/٦٦ ، وسير أعلام النبلاء ١١٥/١١٨.

(٥) المغانم المطابة ٢/٤٥٦ ، ط١ ، ١٤١٨هـ ، وكذا اقتصر على هذا القول محمد لبيب البتنوني في الرحلة الحجازية ص ٢٦٣ ، وبوركهات في قسم المدينة من رحلاته ص٢٩٨ ، ومأمون محمود ياسين في الرحلة إلى المدينة المنورة.ص١٦٧ .

(٦) إسحاق بن محمد بن إبراهيم بن علي بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب ، كان أميراً على المدينة لحين وفاته سنة ٢٦٦هـ ، وقد لقبه المؤرخون الجعدي . لمعي ، ص ٢٥١ .

(٧) خلاصة الوفا ٢/٢٤٨-٢٤٩ .

ثم قال : « ولعل المنسوب لابن بويه إنما هو تجديده أو سور غيره »[١] ا.هـ.

ولهذا لم يكترث كثير من المؤرخين بما نقله المجد ، وجزموا بأن أول من أقام السور هو إسحاق بن محمد ، وإن كان إبراهيم باشا سها في تاريخه فجعله سنة ٢٣٦هـ ، بدل ٢٦٣هـ والله أعلم[٢] .

سبب بناء السور الأول : تتفق معظم المصادر التاريخية على أن سبب بناء السور حول المدينة هو حمايتها من هجمات الأعراب عليها[٣] ، ففي عهد الخليفة الواثق تعرضت المدينة لهجوم من بني هلال تسبب في خراب العديد من مبانيها ، ونقل العلامة حمد الجاسر عن كتاب (الأوراق) لأبي بكر الصولي أنه في سنة ثلاث وستين ومائتين أغارت بنو كلاب على المدينة فقتلوا رجالاً وسبوا نساءً وأطفالاً فجاء صريخهم إلى بغداد .... على أن .... البزاز ، كان رجلاً صالحاً عدلاً جمع مالاً من التجار للنفقة على تحصينها فوجه المال إليهم ..... وأخرج السور ... مع ولد عقيل بن أبي طالب[٤] .ا.هـ

ولعل الرجل التاجر الصالح البغدادي جمع الأموال وأرسلها إلى أمير المدينة وقتئذٍ فقام ببناء السور حولها .

وصف السور الأول : لم ترد إلينا معلومات وافية تبين وصف السور الأول والمناطق التي شملها ، لكن ومن خلال النتف اليسيرة التي وردت منثورة في كتب التاريخ يتبين لنا أن هذا السور كان مبنياً بالطوب واللبن[٥] ، وأنه كان يشتمل على أربعة أبواب فقط ؛ باب في المشرق يخرج منه إلى البقيع ، وباب في المغرب يخرج منه إلى العقيق

(١) خلاصة الوفا ٢/٢٤٨-٢٤٩ .

(٢) انظر مرآة الحرمين تأليف اللواء إبراهيم رفعت باشا ١/٤١٠ ، والمدينة المنورة وتطورها العمراني للأستاذ صالح لمعي مصطفى ص ١٣ ، ط : دار النهضة العربية ، بيروت .

(٣) انظر مرآة الحرمين لـ إبراهيم رفعت باشا ١/٤١٠ ، والرحلة الحجازية للبتنوني ص ٢٦٣ .

(٤) حاشية المغانم المطابة (قسم المواضع) تحقيق : حمد الجاسر ، ص ١٩٠ ، والبياض موضع كلمات لم يستطع الجاسر قراءتها .

(٥) لمعي ص ١٣ .

وإلى قباء ، وباب في الشمال إلى المغرب ، وباب آخر يخرج منه إلى قبور الشهداء بأحد[١] .

وظل هذا السور يؤدي دوره في حماية المدينة من هجمات الأعراب قرابة مائة عام حتى تهدم معظم أجزائه ، ولم يعد قادراً على أداء المهمة التي بني من أجلها ، فقام عضد الدولة ابن بويه في خلافة الطائع لله بن المطيع لله في الفترة من ٣٦٧-٣٧٢ هـ بإعادة إعماره باللبن الترابي[٢] .

قال صاحب الروض المعطار : إن المدينة في مستوى من الأرض كان عليها سور قديم وهي الآن عليها سور حصين منيع من التراب أي اللبن بناه قسيم الدولة[٣] .

ويذكر المقدسي أسماء الأبواب التي كانت على هذا السور ووصفها فيقول : والمدينة هائلة الأبواب و لها أربعة أبواب باب البقيع و باب الثنية وباب جهينة وباب الخندق[٤] . ا.هـ

ويظهر أن ابن بويه جدد السور الأول أو أقام واحداً آخر مقامه ، ولم يخرج عن مساره الأول كثيراً كما يبدو ذلك واضحاً من خلال التقارب في جهة الأبواب والمناطق التي تؤدي إليها في كلا الحقبتين[٥].

ويذكر الأستاذ صالح لمعي[٦] أن الهدف من العناية بالسور في هذه المرحلة هو حماية المدينة من استيلاء الدولة الفاطمية عليها ، وهذا التعليل قد يكون مراداً لكن الأقرب منه هو ما عرف عند معظم المؤرخين من أن الهدف منه هو حماية المدينة من هجمات الأعراب عليها .

---

(١) الروض المعطار في خبر الأقطار لمحمد بن عبد المنعم الحميري تحقيق : د. إحسان عباس ، ص ٤٠١-٤٠٢ ، ط ١٩٨٤م ، بيروت .

(٢) خلافاً لما ذكره الدكتور لمعي من أنه بني بالحجر .

(٣) الروض المعطار ص ٤٠٢ ، وانظر الخلاصة ٢٤٩/٢ .

(٤) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم للمقدسي ٨٠/٣-٨١ .

(٥) وهذا يؤكد ما بيَّنه الدكتور الكعكي في موسوعته : معالم المدينة المنورة بين العمارة والتاريخ - تحت الطبع - من أن السور في المراحل الأولى منه ظهر متجانساً مع النسيج العمراني ، حيث تم اختيار الأبواب على مداخل ومخارج النسيج ، وأقيمت على محاور الأزقة والطرقات الرئيسية ، وأصبحت فيما بعد مواقع ثابتة لهذه الأبواب تم الإبقاء عليها في التجديدات المتلاحقة والتي استمرت لأكثر من ألف سنة . ص ٢٤٦-٢٤٧ .

(٦) ص ١٣ .

ظل السور الذي بناه ابن بويه يؤدي دوره في الحفاظ على المدينة وأهلها قرابة مائتي عام حتى تهدم ولم يبق منه إلا آثاره، وعادت المدينة من جديد تتعرض لهجمات البادية ، الأمر الذي حدا بجمال الدين محمد بن أبي المنصور المعروف بالجواد الأصفهاني[١] إلى إعادة بناء السور من جديد عام ٤٥٠هـ فحفظ على المدينة أمنها واستقرارها ، ولهجت الألسنة بالدعاء له، حتى كان الخطيب بالمدينة يقول في خطبته : اللهم صن حريم من صان حرم نبيك بالسور محمد بن علي بن أبي المنصور[٢] .

ويبدو أن الجواد الأصفهاني لما أعاد بناء السور القديم لم يجر عليه أي توسعة ، ومن أي طرف من أطرافه الأمر الذي أقلق التجمعات العمرانية القليلة التي كانت ممتدة خارج السور القديم ، والتي كانت عرضة لهجمات الأعراب بين الفينة والأخرى ، ولما زار نور الدين محمود بن زنكي الشهيد[٣] المدينة بعد ثمانية عشر عاماً فقط من تجديد الجواد لسور المدينة أي في عام ٥٥٨هـ[٤] ، وأراد العودة وركب متوجهاً إلى الشام تجمع حوله عدد من السكان الذين هم خارج السور ، وطلبوا

(١) الوزير الصاحب ، الملقب بالجواد ، أبو جعفر ، محمد بن علي بن أبي منصور الأصفهاني ، كان وزير صاحب الموصل زنكي الأتابك ، وكان كريماً ، نبيلاً ، محبباً إلى الرعية ، يرسل في السنة إلى الحرمين ما يكفي الفقراء ، أجرى الماء إلى عرفات أيام الموسم.وأنشأ مدرسة وسوراً بالمدينة.توفي سنة ٥٥٩هـ.ودفن بالموصل ، ثم نقل بعد عام ودفن بالمدينة.، وفيه يقول أبو المجد ابن قسيم :

أغر تبصر منه الناس في رجل والليث في بشر والبدر في غصن
سما بهمته في المكرمات إلى عليا تقصر عنها همة الزمن

إلى أن قال :

صان المدينة تسويراً وصورها في الحسن غادة ملك الشام واليمن
وصاب بالمال أهليها فما بقيت هزلاء إلا تشكت كثرة السمن

الكامل في التاريخ ٨٧/٩ ، والروضتين في أخبار الدولتين ٤٢٠/١ ، وسير أعلام النبلاء ٣٤٩/٢٠.، ووفاء الوفا للسمهودي ، تحقيق: د. قاسم السامرائي ١١٠/٣ ، ط١ ، مؤسسة الفرقان ، ١٤٢٢هـ .

(٢) الخلاصة ٢٤٩/٢-٢٥٠ والمطري ص ٧٣

(٣) الملك العادل صاحب الشام ، نور الدين محمود بن الأتابك قسيم الدولة زنكي بن آقسنقر ، ولد في شوال سنة٥١١هـ ، تملك عشرين سنة ، وكان حامل رايتي العدل والجهاد ، افتتح حصوناً كثيرة ، وبنى المدارس والجوامع ، وأنشأ المستشفى (المارستان) ودار الحديث ، وأبطل المكوس ، وله مآثر جمة في المدينة ودمشق وغيرهما، توفي في شوال سنة٥٦٩هـ . ترجمته موسعة في الروضتين لأبي شامة ٤٨/١ ، سير أعلام النبلاء ٥٣١/٢٠ .

(٤) يذكر بعض المؤرخين أن زيارة نور الدين تلك للمدينة كانت بسبب رؤية رآها .

منه بإلحاح أن يبني عليهم سوراً يحفظ أبناءهم وماشيتهم ، فأمر ببناء سور آخر أحاط بالسور القديم والتجمعات السكانية التي أقيمت خارجه .[١]

ورافق بناء السور الخارجي بعض الإصلاحات على السور الداخلي ، ويدل على ذلك العبارة التي أشار إليها المطري ومن بعده السمهودي والتي كانت موجودة على باب الحديد داخل بوابة البقيع وهو من أبواب السور الأول ونص العبارة : هذا ما أمر بعمله العبد الفقير إلى الله تعالى محمود بن زنكي بن آقسنقر غفر الله له سنة ٥٥٨هـ[٢] .

ويرجح بعض المؤرخين[٣] أن نور الدين زاد في السور الذي بناه الجواد الأصفهاني لا أنه بنى سوراً آخر ، وهذا الرأي قريب لولا ما أفادنا به ابن جبير في رحلته التي زار فيها المدينة عام ٥٨٠هـ ، أي بعد بناء نور الدين للسور باثنين وعشرين عاماً إذ أفاد أن للمدينة سورين وأربعة أبواب في كل سور باب يقابله آخر ، أُطلق على إحداها باب الحديد نظراً لأنه كان كذلك ، و باب الشريعة ، و باب القبلة يقول : وهو مغلق ، وباب البقيع[٤] .

ويظهر من وصف ابن جبير لسور المدينة وذكره لأسماء أبوابها ، عدم استقرار أسماء الأبواب حتى تلك الفترة ، فقبل زيارة ابن جبير باثنين وعشرين عاماً لم يكن هناك باب اسمه باب الشريعة ولا باب القبلة ولا باب الحديد ، والباب الوحيد الذي ظل محافظاً على اسمه هو باب البقيع نظراً لمناسبة قربه من بقيع الغرقد ، يقول الدكتور صالح لمعي : « ويلاحظ أن ابن جبير قد أخذ الترتيب الجغرافي في وصفه للسور بالنسبة لباب القبلة في اتجاه الجنوب ، وباب البقيع في اتجاه الشرق ، مما يجعلني أرجح وجود باب الحديد في السور الشمالي وهو ما سماه المقدسي في وصفه باب ثنية الوداع ، كما أرجح أن باب الشريعة هو باب جهينة أو ما يقابله ، ولعل وجود مدرسة لتدريس الشريعة قد طغى على اسم جهينة السابق »[٥] .

---

(١) المطري ٣٦، ٧٤ ، والخلاصة ٢٤٩/٢.

(٢) المطري ، ص ٧٤ ، والخلاصة ، ص ٢٤٩ .

(٣) منهم ابن فرحون ، والبتنوني ، ومأمون محمود ياسين . انظر الرحلة الحجازية ٢٦٣ ، الرحلة إلى المدينة ص١٦٧ .

(٤) انظر رحلة ابن جبير ص١٧٥-١٧٦ بتصرف ، ط دار بيروت ١٤٠٤هـ .

(٥) لمعي ، ص ١٥ بتصرف .

وما ذكره الدكتور صالح لمعي[١] من أن سبب بناء نور الدين الشهيد للسور الثاني وتجديده للسور الأول يرجع إلى ضرورة توفير الحماية الكافية للمدينة المنورة من الغزو الصليبي مرجوح ،و ما استدل به من نزول الصليبين في ينبع واتجاههم إلى غزو المدينة كان بعد نور الدين في زمن صلاح الدين رحمهما الله تعالى .

ولهذا قال الدكتور الكعكي : وهذا لا يعني أن نغفل عن الدافع الرئيسي الذي دفع نور الدين بن زنكي لعمارة السور وتجديده والمتمثلة في طلب أهل المدينة وإلحاحهم المستمر على الملك نور الدين بإقامة هذا السور[٢] .

وظلت عمارة السور تؤدي المهمة التي أنشئت من أجلها قرابة مائتي عام ، خضعت المدينة خلالها لحكم الدولة المملوكية البحرية والجركسية في مصر (٦٤٨/٩٢٣هـ) ، وحظيت المدينة في هذه الحقبة ببعض الإصلاحات من قبل بعض السلاطين .

ففي عام ٧٥٥هـ جدد السلطان الصالح صلاح الدين بن الناصر محمد بن المنصور قلاوون[٣] السور ، .كما جدد أشياء منه السلطان الأشرف قايتباي[٤] أيام ولايته التي امتدت من عام ٨٧٢هـ وحتى عام ٩٠١هـ[٥] .

ويبدو أن التجديدات التي لحقت السور في تلك الفترة لم تشمل السور الثاني الذي بناه نور الدين ، مما يرجح أنه اندثر ولم يبق له أثر ، أو يكون قد ضم إلى السور الأول خلال التجديدات المتعاقبة على قول من يرى أن نور الدين زاد في السور الأول لا أنه أضاف إليه آخر كما تقدم .

وهذا ما يفسر لنا سر سكوت كل المؤرخين بعد ابن جبير عن وصفه ، واقتصارهم على ذكر سور واحد للمدينة فقط ، حتى إن العلامة السمهودي

---

(١) ص١٥ .

(٢) موسوعة الكعكي ، ص ٢٤٨ بتصرف .

(٣) سلطان مملوكي بحري حكم مصر بين عامي ٧٥٢-٧٥٥هـ .

(٤) أبو النصر سيف الدين ، سلطان الديار المصرية ، من ملوك الجراكسة ، كان من المماليك ، تولى الحكم سنة ٨٧٢هـ ، وتلقب بالملك الأشرف ، وكانت مدته حافلة بالعظائم والحروب ، وسيرته أطول السير ، استمر إلى أن توفي بالقاهرة. الأعلام ، للزركلي ١٨٨/٥ .

(٥) وفاء الوفا ١١١/٣ ، تحقيق النصرة ، ص ١٤٦ .

المتوفى سنة ٩١١هـ والذي اشتهر بدقة وصفه وشموليته لم يتعرض إلا لوصف السور الأول الذي قال فيه : « ولسور المدينة اليوم أربعة أبواب غير باب حصن أمير المدينة المعروف بباب السر، وهو عظيم كله من الحديد ، وأما الأبواب الأربعة :

فأحدها : الباب الذي غربي المدينة في جهة المصلى عند منزلة الحاج المصري ، ويعرف بدرب المصلى ودرب سويقة ، وذرع ما بينه وبين عتبة السلام ٦٤٥ ذراعاً ، وكان عليه باب متقن أحرقه صبيان الأمير ضيغم[١] سنة عزله ، فأخذ أمير المدينة باب الحوش الذي عمره الأمير ضيغم وجعله عليه ، ثم عمل به باب متقن كالأول في عمارة المسجد المتجددة بعد الحريق الثاني .

ثانيها : الباب الذي في جهة المغرب أيضاً عند رحبة حصن أمير المدينة يعرف بالدرب الصغير .

ثالثها : الباب المعروف بالدرب الكبير والدرب الشامي.

رابعها : الباب المعروف بدرب البقيع في شرقي المدينة ، ويعرف بدرب الجمعة ، وعليه باب متقن مغشى بصفائح الحديد ، والظاهر أنه باق من زمن نور الدين الشهيد[٢] لما قدمناه من الكتابة عليه ، وذرع ما بينه وبين عتبة باب المسجد المعروف بباب جبريل ٤٣٣ ذراعاً. وفي قبلة سور المدينة موضع باب مسدود اليوم وكان يعرف بدرب السوارقية » انتهى[٣] .

سور المدينة في العهد العثماني :

ومع مرور الزمن تهدم أعالي السور ، وأشرف باقيه على السقوط ، وأصاب أهل المدينة بسبب ذلك ضرر كبير خاصة من الأعراب المنتشرين بقرب المدينة ، وبلغ ذلك السلطان العثماني سليمان فأمر واليه على مصر أن يجهز الأموال والعمال والمواد اللازمة لتجديد السور الأول تجديداً كاملاً ، و بدئ العمل به عام ٩٣٩هـ/١٥٣٢م ، واستغرق العمل به ما يقرب من سبع سنوات ،

---

(١) هو: ضيغم بن خشرم الحسيني ، حاصر المدينة سنة ٨٦٧هـ ، ودخلها ونهب بعض بيوتها . انظر ترجمته في التحفة اللطيفة ٤٦٤/١ ، والضوء اللامع ٢/٤ .

(٢) أي: عند تجديده لأجزاء من السور الأول .

(٣) وفاء الوفا ٧٧٠/١ .

تعطلت أعمال العمارة في بعض مراحل البناء لأسباب منها : وفاة أمين العمارة ، ومنها نفاد النفقة المخصصة لذلك، ثم تدوركت هذه المعوقات وتم إكمال البناء في ١٥ شعبان ٩٤٦هـ .وصار السور بيضاوي الشكل يحيط بالكتلة العمرانية الموجودة آنذاك من جميع جوانبها ، طوله ٣٠٠٠م ، بارتفاع يتراوح بين ١٠,٥ إلى ١٢م ، بنيت أساساته بالحجر ، وأكمل بالآجر ، ووضع عند المنعرجات مجموعة من الأبراج تزيد من متانته، وتؤدي أغراضاً دفاعية أخرى ، وفتح في السور أربعة أبواب هي : باب الجمعة أو البقيع ، وينفذ للبقيع ، وهو (الباب الشرقي) ، وباب القلعة (باب الشامي) وهو في الشمال ، وينفذ لطريق الجرف وسيدنا حمزة ، والباب الصغير (وهو في جنوب الباب الشامي) وينفذ للمناخة للقادم من الشمال بعد دخوله من الباب الشامي ، وباب المصري (وهو في الغرب ويسمى باب سويقة) ينفذ للمناخة للقادم من المسجد الشريف من سوق الحدرة[١] .

وقد صرف على هذا السور مبلغ ضخم قُدّر بأكثر من مائة ألف دينار ، عدا الخشب والحديد والحبال والرصاص والدهانات . ويعد هذا السور أضخم وأقوى وأعلى سور بني إلى ذلك الوقت ، وصار يضرب به المثل ، ومن ذلك قول أحدهم :

يا من لهم مهجتي والحشاءة منازل تزهو ببنيان
قلبي لكم سور بليغ البناء كأنه السور السليماني[٢]

وبعد الانتهاء من بناء السور كتب على الباب الغربي منه : ﴿ إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ﴾[٣] .

وقد فرح أهل المدينة بالسور فرحاً عظيماً ، وأدخل عليهم الأمن والاطمئنان[٤] .

---

(١) التحفة اللطيفة في عمارة المسجد وسور المدينة الشريفة ، ص٨٦ ، ٨٧ ، وعمدة الأخبار ، ص١٤٦ ، وفصول من تاريخ المدينة ، لعلي حافظ ، ص٣٧ ، وما ذكره إبراهيم رفعت باشا في مرآة الحرمين ٤١٣/١ من أن الباب المصري فتحه محمد علي باشا بعد حربه للوهابية وتعميره للسور الداخلي مخالف لما أجمع عليه المؤرخون من أنه فتح مع بناء السور السليماني ، وبني بالحجر المنحوت ، وكتب عليه قوله سبحانه : ﴿ إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ ولعل المنسوب لمحمد علي تجديده . والله أعلم .

(٢) الجواهر الثمينة في محاسن المدينة ، للسيد محمد كبريت ، ص ١١٧ .

(٣) السابق نفسه .

(٤) السابق نفسه .

وحافظ سلاطين الدولة العثمانية على هذا السور ، وأولوه عناية خاصة ، وجرت في عهودهم المتلاحقة إصلاحات وترميمات عدة.؛ فقد جدده السلطان محمد بن إبراهيم خان عام ١٠٧٨هـ ، ثم السلطان عبد الحميد الأول الذي حكم ما بين عامي ١١٨٧-١٢٠٣هـ ، وأصلح ما تهدم منه محمد علي باشا والي مصر بأمر من السلطان محمود خان الثاني الذي حكم عام ١٢٢٠ه/١٨٠٥م ، وفي تلك الفترة أنشأ محمد علي سوراً آخر ربط به ما بين الأبراج والقلاع التي كانت مشرفة على المدينة في الجهة الغربية والجنوبية كما سيأتي .

وفي عام ١٢٣١هـ/١٨١٥م زار الرحالة بوركهارت المدينة المنورة ورسم لها خريطة بيَّن عليها السور السليماني (الأول) والسور الثاني الذي أحدثه محمد علي ، وتعد هذه الخريطة كما قال الدكتور صالح لمعي أقدم خريطة دقيقة للمدينة المنورة[١] .

ويصف الرحالة الإيرلندي رتشارد بيرتون الذي تنقل في مناطق الحجاز في الفترة من عام ١٢٦٩ هـ إلى عام ١٢٧١ هـ السور بأنه : « في حالة ممتازة إذ هو مبني من الجرانيت والكتل الصخرية البركانية قد صف بعضها فوق بعضها الآخر بإحكام، وثبتت بالجبس ، وقد زود السور بعدد من المزاغل أو المتاريس والشراشيف[٢] وأبراج نصف دائرية وزود أيضاً بفتحات طولية وكوات منظمة بحيث تكون المسافات بينها قصيرة وغير متساوية »[٣] .

وفي عام ١٢٨٥هـ أجرى السلطان عبد العزيز بن محمد الثاني للسور عمارة كبيرة ، وجعل ارتفاعه ٢٥ متراً وبنى فيه ٤٠ برجاً تشرف على جوانب المدينة الأربعة مزودة بالمدافع والآلات الحربية .

وفي زمن عمارة السلطان عبد المجيد للمسجد النبوي فُتح في هذا السور باب سُمي باسمه باب المجيدي ، وينفذ لبئر حاء .

---

(١) المدينة المنورة تطورها العمراني ، ص١٩ .

(٢) المزغل أو المترس : فتحة طولية ، أما الشراشيف فهي فتحات تتخذ الواحدة منها شكل ثلاث من أوراق الشجر ، وتستخدم هذه الفتحات في إطلاق النار .

(٣) رحلة بيرتون إلى مصر والحجاز ٩٦/٢ بتصرف .

كما أحدث بعد ذلك في آخر عهد الأتراك : باب الحمام ، وينفذ لذروان وشارع العوالي ، وباب بصري ، وينفذ لشارع السحيمي ومحلة باب المجيدي ، وباب القاسمية ، وينفذ من المناخة إلى الشونة[١].

وظل السور السليماني (الأول) يؤدي المهمة التي أنشئ من أجلها مدة طويلة من الزمن .

وفي عام ١٣٣٥هـ نشبت الحرب بين الهاشميين والأتراك ، فحاصر الشريف حسين بن علي ؛ فخري باشا محافظ المدينة من قبل العثمانيين و قائد الحامية فيها ، وكان للسور في هذه المواجهات دور فعال في صد هجوم الهاشميين عن المدينة .

سور محمد علي باشا : وبعد هذا السور الذي بناه السلطان سليمان رحمه الله أحدث سور آخر غربي المدينة محيط بالبيوت التي في خارج السور الأول في غربه وجنوبه، بدأ من البقيع واتجه جنوباً إلى قباء فالعنبرية إلى قلعة الباب الشامي فالسور الكبير الذي بناه السلطان سليمان ،وصار يطلق عليه السور (البراني) ، وذلك في مقابل السور الأول الذي أطلقوا عليه السور (الجواني) .

وهذا السور أساسه من حجر وارتفاعه عن وجه الأرض من اللبن[٢] والمشهور بين أهل المدينة أنهم هم الذين بنوه في عهد محمد علي باشا والي مصر ، بأمر من السلطان محمود ، وذلك بعد الحملة التي جهزها على المدينة المنورة وإخراج القوات السعودية الأولى منها .

قال ابن موسى في رسالته :أما السور البراني فقد كان في أوائل القرن الماضي غير موجود، وإنما كان للعساكر الموظفة من الأهالي لحفظ البلدة الطاهرة أبراج في أطراف المناخة ، بين البرج والبرج نحو مائتي ذراع بذراع العمل ، وكل برج لجماعة مخصوصين يتناوبون فيه ، فلما استولى الوهابي بعد العشرين والمائتين والألف على المدينة المنورة وجاءت عساكر مصر في زمن المرحوم محمد علي باشا والي مصر بأمر المرحوم السلطان محمود لإخراج الوهابي من المدينة المنورة وأخرجوه ،

(١) فصول من تاريخ المدينة لعلي حافظ ، ص٣٧ ، ط٣ ، ١٤١٧هـ .

(٢) علي حافظ ، ص ٣٨ .

بنوا بين الأبراج سوراً أساسه من حجر إلى وجه الأرض ، وارتفاعه باللبن ، وجعلوا فيه الأبواب المقدم ذكرها من غرب باب العنبرية ، ومن قبلة باب قباء ، ومن شرق باب العوالي ، ومن شام باب الكومة ، وكلما انهدم من ذلك السور شيء بنته الحكومة المحلية ، وهكذا إلى الآن . انتهى كلام ابن موسى[١] .

وفي عام ١٣٠٥هـ أجرى السلطان عبد الحميد الثاني بعض الإصلاحات على هذا السور خاصة عند بوابة العنبرية في الجزء الجنوبي الغربي ، فقد تمت إزالة البوابة الأولى التي كانت بين التكية المصرية وقشلة العساكر النظامية ، وأعيد بناؤها بجوار محطة السكة الحديد لإدخال منطقة السكة داخل السور[٢] وبلغ ارتفاع الباب عشرين متراً مربعاً ونقش عليه هذان البيتان :

باب لطيبة شاده ملك الورى　　خاقاننا الغازي الحميد ثناه

يا سعد أرخ باب سعد ناجح　　سلطاننا عبد الحميد بناه

وصار يطلق على باب العنبرية الباب الحميدي نسبة للسلطان عبد الحميد ، ثم سمي بالباب الرشادي نسبة إلى السلطان رشاد آخر سلاطين بني عثمان الذي أجرى عليه بعض الإصلاحات[٣] .

وبناء على ما سبق يتبين لنا أن ما يتوهمه البعض من أن السور الثاني (البراني) الذي بناه محمد علي باشا بأمر من السلطان محمود العثماني هو نفسه سور نور الدين زنكي ، أو أنه مقام مكانه توهم عار عن الصحة ؛ ذلك لأن سور نور الدين قد اندرست معالمه ولم يبق له أي أثر كما تقدم .

سور فخري باشا :

وفي الفترة بين عامي ١٣٣٤-١٣٣٧هـ أقام فخري باشا القائد العسكري للمدينة زمن الدولة العثمانية سوراً حول محطة اللاسلكي (الترسيس) الواقعة على شارع العيون في الجهة الشمالية من المدينة ، وجعل له باباً من الجهة الغربية ، وبنى عند أركان وزوايا السور أبراجاً وشرفات عالية لمراقبة كل ما يدور خارج المحطة .

---

(١) انظر : رسالة علي بن موسى في وصف المدينة عام ١٣٠٣هـ ١٨٨٥م ، ص٥٥ ، منشورة ضمن كتاب : رسائل في تاريخ المدينة ، منشورات دار اليمامة ، الرياض بإشراف حمد الجاسر . وانظر أيضاً مرآة الحرمين ، ص ٤١٣ ، ٤١٤ .

(٢) انظر معالم المدينة المنورة بين العمارة والتاريخ للدكتور عبد العزيز الكعكي ، ص ٢٧٨ .

(٣) انظر شارع العنبرية ، هشال بن عبد العزيز الخريصي ، ص٨-٩ ،، سكة حديد الحجاز الحميدية ، د. السيد محمد الدقن ص ٢١٢ .

ثم أنشأ سوراً آخر ربط به ما بين المحطة وسور المدينة ، وكان الهدف من ذلك المحافظة على مبنى اللاسلكي من أن تقع في قبضة الهاشميين الذين ثاروا ضد الدولة العثمانية في تلك الفترة ، حيث كانت هذه المحطة صلة الوصل الرئيسة بينه وبين مركز القيادة بإستانبول[١] .

وقد امتد هذا السور من ركن باب الأبارية جنوب البقيع ثم اتجه شمالاً حتى باب التمار حيث انحرف غرباً ليلتقي بالركن الشرقي الأعلى لسور محطة الاتصالات .

بنيت أساسات السور بالحجر الخام (الدبش) بارتفاع متر ونصف إلى مترين ، ثم أكمل بالطوب اللبن ، وتراوح ارتفاعه ما بين ثلاثة أمتار وأربعة أمتار ونصف ، وبنيت أبراج صغيرة عند زوايا انكسار السور أو تغير اتجاهه بهدف تدعيمه وترابط أجزائه. ، وفتح فيه أربعة بوابات صغيرة على هيئة عقود من الحجر المهمل هي :باب الأبارية جنوب البقيع يليه إلى الشمال باب التمار ثم باب الصدقة ثم باب الشهداء[٢] .

وفي عام ١٣٤٣هـ أصلح أجزاء من هذا السور عبد المجيد باشا القائد العسكري للشريف حسين في المدينة المنورة ؛ بهدف منع رجال الملك عبد العزيز آل سعود من دخول المدينة .

عاشت المدينة زمناً طويلاً داخل الأسوار إلى أن دخلت في كنف الدولة السعودية عام ١٣٤٤هـ/١٩٢٥م ، واستتب الأمن ، وازداد عدد السكان ، وتضاعفت مساحة الرقعة السكانية فيها ،فتم هدم السور في عام ١٣٧٠هـ/١٩٥٠م ولم يبق منه في ذلك العصر غير أجزاء من الباب المصري تم إزالتها نهائياً في السنوات اللاحقة[٣] .

وقامت أمانة المدينة المنورة مؤخراً ببناء نموذج لبوابة الباب المصري[٤] عند تقاطع الدائري الثاني مع طريق الهجرة ؛بهدف إعادة إحياء بعض المعالم التي تجسد التراث الحضاري والمعماري للمدينة المنورة .

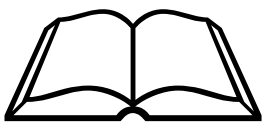

(١) التاريخ الشامل د. عبد الباسط بدر ٤٨/٣ .

(٢) انظر موسوعة الدكتور الكعكي ص٤٦٤-٤٦٨ .

(٣) انظر تعليق حمد الجاسر على كتاب عمدة الأخبار للعباسي ص٣٤٢ ، والمدينة المنورة في التاريخ ص٤٦ .

(٤) إحدى بوابات السور الأول .